أديب الداوودي – الكفاح من أجل سوريا وفلسطين (1923-2004)

في 15 آب 2004، قبل عشرين عامًا، توفي والدي د.أديب الداوودي. بغيابه، خسرت ووالدتي أمل خرطبيل الداوودي وأخواتي رولى ورانيا وجودي وتيما جزءا كبيرا من حياتنا الشخصية لكن طوي أيضًا فصل كامل من تاريخ العالم العربي. اختصار حياة والدي ونضالاته في بضعة أسطر ضرب من المستحيل. لكن في ضوء الكارثة الحالية التي تعيشها غزة وفلسطين بشكل أوسع، أودّ أن أنتهز الفرصة لأذكر بعض المحطات التي ربطت حياة أديب الداوودي بتاريخ الشرق الأوسط.

البدايات والنضال من أجل الاستقلال

بعد حصول سوريا على الاستقلال في عام 1946، كان والدي من أوائل المنضمين إلى وزارة الخارجية حديثة التأسيس بعد ما نال شهادة المحاماة من جامعة دمشق. بدأ مسيرته المهنية في باريس خلال الأربعينيات كقنصل في السفارة السورية في باريس ونال دكتوراه في القانون الدولي من جامعة السوربون على غرار ذلك الجيل من المثقفين السوريين الذين ناضلوا ضد الانتداب الفرنسي على سوريا، لكنهم أتقنوا في الوقت نفسه الثقافة واللغة الفرنسي. كان هذا النضال من أجل الاستقلال الوطني والكرامة وأهمية القضية العربية محورًا أساسيًا في حياته.

الاستمرار في خدمة الوطن

بصفته سفيرا لسوريا، رفع علم بلاده عاليًا في الأوساط الدبلوماسية الدولية ودافع عنها في مداولات مجلس الأمن منذ عام 1952. في وقت انفصال سوريا ومصر عام 1961، عمل بجد وفعال لضمان بقاء سوريا واحدة من الأعضاء المؤسسين القدامى للأمم المتحدة وعدم تسجيلها كعضو جديد، مما يعني أن بلاده لن تجلس في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في وقت كانت تتخذ فيه قرارات مهمة بشأن فلسطين. دافع عن سوريا أيضًا خلال الانتهاكات الإسرائيلية المتكررة للمنطقة المنزوعة السلاح بين إسرائيل وسوريا عند اندلاع حرب 1967 واحتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية والسورية. تم إيفاده كمستشار سياسي إلى السفارة السورية في نيويورك لحضور جلسات الطوارئ لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . لاحقاً، شارك في المناقشات التي أدت إلى تبني القرار 242 في 22 تشرين الثاني 1967. شغل منصب القائم بأعمال السفارة السورية في لندن ومستشارها خلال حرب السويس عام 1956، عند قيام الجمهورية العربية المتحدة وتصدعها، وبعد ذلك في الهند في نهاية الخمسينيات، حيث أجرى محادثات مثمرة مع نهرو وسط النضالات المناهضة للاستعمار وحركة عدم الانحياز. تم تعيينه مرة أخرى سفيرًا في الهند في أوائل الستينيات، ثم في باكستان وتشيكوسلوفاكيا خلال ثورة براغ عام 1968، ولدى البينيلوكس (هولندا والدنمارك وبلجيكا ولوكسمبورغ) خصوصًا خلال حرب تشرين الأول 1973، وأخيرًا سفيرًا لدى الأمم المتحدة في جنيف والفاتيكان في نفس الوقت منذ عام 1981.

دعم اللاجئين الفلسطينيين

كان والدي يهتم بعمق بنضال الشعوب ضد الاستعمار والهيمنة الغربية، كما تمثل من خلال مشاركته في مؤتمر باندونغ في العام ١٩٥٥،والتعليم المناهض للاستعمار الذي تلقينا، مما ساهم بالتأثير في مساري الدراسي وكتاباتي المستقبلية. مع النكبة، جوهر النضال ضد الاستعمار الاستيطاني والجُرح المفتوح منذ عام 1948 عندما فقد الفلسطينيون أرضهم وتهجروا، كرس جهوده للاجئين. بصفته مديرًا مؤسسة اللاجئين في دمشق تم تعيينه بعد عودته من باريس، رغم العقبات العديدة والاتهامات بالسعي للتوطين، وتهديدات بالتصفية، بدأ عام 1954 بالبحث عن أراضٍ لبناء مساكن لإيواء اللاجئين الفلسطينيين المكدسين في المساجد. أغضبه مشهد البؤس والاكتظاظ والهشاشة التي كانت تعيشها الأسر بأكملها، وقرر إعادة بعض الكرامة والعيش الكريم لهم. تحول "مخيّم" اليرموك الآن إلى مدينة مزدهرة جنوب العاصمة.

في عام 1999، بعد إلقاء محاضرة في مؤتمر حول النزاع العربي الإسرائيلي، اقترب مني أكاديمي في الثلاثين من عمره وسألني إن كنت ابنة أديب الداوودي. عندما أكدت، قدم نفسه قائلاً إنه من سكان مخيم اليرموك ولن ينسى أبداً ما فعله والدي

من أجله ومن أجل عائلته، رغم ولادته بعد بناء الحي بوقت طويل. لن أنسى أبدًا هذا اللقاء مع أحد أبناء اليرموك. تأثرت أيضًا عندما رأيت طالبًا سوريًا أشرفت عليه في جامعة جورج تاون، نشأ في مخيم اليرموك، يقدم تحية لوالدي لبنائه المخيم عندما دافع عن أطروحته. المخيم الذي أصبح أحد أكثر الأحياء حيوية في دمشق، لكنه تحول لاحقًا إلى أنقاض وتشتت سكانه مرة أخرى في العقد الأخير. وسط الرعب والدمار الذي حل بسوريا وسكانها، والمجازر الحالية التي ترتكبها إسرائيل في غزة شعرت بالراحة لأن والدي لم يكن حيًا ليشهده.

النضال من أجل القضية الفلسطينية

كان والدي بالفعل ابن الشام الحقيقي الذي أحب مدينته، يجري على أسطح منازلها كطفل ويسير في شوارعها كرجل مسن. كان يشعر بأنه فلسطيني في قلبه وروحه، عندما حطمت النكبة عام 1948 مشاعره وكل جيله كرمز لظلم كبير وتجريد شعبنا من حقوقه. قبل وفاة والدي، سألته، حرصًا مني على الاحتفاظ ببعض الذكريات المكتوبة عن هذا التاريخ الحي، ما الذي حرّك نضالاته، وما الذي يختصر بأفضل طريقة رسالة حياته. أجابني: النضال من أجل الاعتراف بالقضية الفلسطينية. كان يؤمن بالمقاومة من خلال النضال السياسي ولكنه أيضًا قدر قوة التعليم كوسيلة للحفاظ على الهوية وتحرير الفلسطينيين من الاحتلال الصهيوني. و بصفته مديرًا مؤسسة اللاجئين في دمشق عمل بلا كلل مع الأونروا UNRWA لزيادة الميزانية الصغيرة المخصصة لتعليم الأطفال الفلسطينيين. بعد تأمينها بنجاح، حشد ممثلي الأردن ولبنان للاجئين الفلسطينيين لتحقيق نفس الهدف. كانت إسرائيل ترى التعليم كتهديد لسيطرتها، حيث دمرت بشكل منهجي جميع الجامعات والمدارس في غزة، مما أدى إلى محو أجيال من العلماء الفلسطينيين البارزين.

الدور الدبلوماسي

كما خاض هذا النضال من أجل سوريا وفلسطين باستمرار في محافل الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك منذ مطلع الخمسينات، وصولاً للجنة حقوق الإنسان في جنيف في الثمانينات بصفته ممثلاً لسوريا. أخبرني موظفو الأمم المتحدة (أثناء تدريبي هناك) أنهم كانوا يتجمعون بلهفة للاستماع إلى خطب والدي. لم يتوقف يومًا عن خوض هذا النضال كعضو في مجلس إدارة مؤسسة الدراسات الفلسطينية. هذا النضال لم يمنعه من التمييز المبكر بين إسرائيل واليهود، خاصة اليهود غير الصهاينة الذين وقفوا دائمًا بجانب الفلسطينيين مثل منظمة "صوت اليهود من أجل السلام" و"إذا لم يكن الآن" في مواجهة المجازر التي تقوم فيها إسرائيل الآن في غزة وضد الشعب الفلسطيني.

هذا ما أخبرني به أستاذ أمريكي يهودي في جامعة هارفارد خلال ندوة في التسعينيات. خلال رحلته إلى دمشق في السبعينيات، لم ينجح في مقابلة أي من المسؤولين الرسميين حتى نصحه أحدهم بالاتصال بوالدي، الذي أخبره أن يوم الجمعة مخصص لبناته لكنه سيستقبله في مكتبه في المساء. وبالفعل، استقبله بكل ارتياح وسهل له المزيد من المقابلات الرسمية.

مسيرة الدبلوماسي المثقف

رغم أن أديب الداوودي لم يكن يومًا عضوًا في حزب البعث ولم يكن رجلًا عسكريًا، لكن بحكم خبرته كمثقف ودبلوماسي متمرس منذ استقلال سوريا عام 1946، عين مستشارًا سياسيًا للشؤون الخارجية لدى الرئيس حافظ الأسد في المرحلة الحاسمة من منتصف السبعينيات حتى أواخرها، والتي شهدت ترسيخ الدور الإقليمي والدولي لسوريا.خلالها غادر العديد من الدبلوماسيين وزارة الخارجية. تلقى والدي عروضًا مختلفة من الدول العربية لكنه اختار خدمة بلاده. في 9 آذار 1975، شارك في الاجتماعات التي عُقدت في دمشق بين الرئيس الأسد ووزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر. خلال أحد هذه الاجتماعات، أوضح الرئيس الأسد شروط إنهاء حالة العداء مع إسرائيل "بموجب القرار 338، الذي ينص على انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها منذ عام 1967، واستعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين."[1] في أيار 1977، نظم والدي أول اجتماع تاريخي بين سوريا والولايات المتحدة، حيث اجتمع الرئيس الأسد والرئيس كارتر في جنيف،

[1]/https://www.fordlibrarymuseum.gov/sites/default/files/pdf_documents/library/document .pdf, p. 20.1553950/0331

سويسرا. في ذلك الاجتماع، شددت سوريا على ضرورة الاتفاق على "ثلاثة عناصر أساسية"، الأول يتعلق بـ"الحدود أو الأراضي المحتلة"، والثاني بـ"حقوق الفلسطينيين"، والثالث بـ"متطلبات السلام".[2] عام 1979، كلفه الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم Kurt Waldheim شخصيًا بالتفاوض في أزمة ال52 رهائن الأمريكيين في طهران، أولًا كممثل لجميع الدول العربية ضمن لجنة مؤلفة من خمسة مفاوضين دوليين، ثم كمفاوض منتدب وحيد مع الفريق الحاكم الجديد المنبثق من الثورة الإيرانية الذي كان يعرفه ويحترمه. تلقينا اتصال فالدهايم Waldheim في منتصف الليل في منزلنا بدمشق. في بيان صدر من طهران بتاريخ 16 حزيران 1980، أشار والدي إلى "المحادثات التي جرت أكثر من مرة" مع "الرئيس بني صدر وعدة شخصيات في المجلس الثوري والحكومة الإيرانية"، والتي كانت "ذات جدوى".[3] في رسالته إلى الرئيس بني صدر بتاريخ 28 حزيران 1980، أشار فالدهايم Waldheim إلى التقرير الذي قدمه "ممثله الخاص" أديب داوودي، والذي "ساعده في تكوين صورة أوضح حول الكيفية التي يرون بها إمكانية التقدم نحو حل".[4] تم إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين في كانون الثاني 1981. بعد سنوات، أتذكر أن والدي حدثني عن جانب رافقه في مهمته إلى طهران، وهو فقدان صديقه القديم الذي تعرف عليه عندما كانا دبلوماسيين شابين في باريس في أربعينيات القرن الماضي، أمير عباس هويدا، رئيس وزراء إيران السابق، الذي سُجن ثم أُعدم لاحقاً على يد النظام الجديد في عام 1979. كذلك لما كان سفيرا في جنيف ولدى الڤاتيكان، كان صلة الوصل بين الڤاتيكان و سوريا بخصوص حرب لبنان وكان باستمرار يقوم بجهد كبير بين الفرقاء في لبنان لتحسين الوضع بين لبنان و سوريا.

العمل مع الأمم المتحدة

بعد تقاعده من الخدمة الدبلوماسية، انضم إلى وحدة التفتيش المشتركة Joint Inspection Unit التابعة للأمم المتحدة وهي هيئة مستقلة تضم 11 شخصية دبلوماسية تنتخبهم الجمعية العامة وتكليفهم بمهمة الإشراف على سير منظومة الأمم المتحدة وتقويمه. خلال رئاسته لوحدة التفتيش المشتركة، نشر عام 1992 تقريرًا أثار جدلًا حادًا حول تطبيق اللامركزية في المنظمات الدولية، وطرح منذ ذلك الوقت مسألة إصلاح منظومة الأمم المتحدة وضرورة إيجاد حلول للبيروقراطية المتزايدة وعدم الفاعلية ونقص الشفافية في بعض هيئاتها.

ذكريات الختام، القيم والمبادئ

إحياء رسالة والدي يعني، برأيي، دعم مفاهيم المقاومة والعروبة وتقدير الذات والافتخار بالعالم العربي والإسلامي، والتأكيد على شرعية المقاومة الفلسطينية والعربية في وجه القمع والإبادة الجماعية التي ترتكبها إسرائيل ضد الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية المحتلة. إنه العمل من أجل الاعتراف بحق الفلسطينيين في مقاومة مشروع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني المستمر منذ مائة عام في فلسطين وحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة.

إحياء رسالة أديب الداوودي يعني أيضًا تعزيز مفهوم النزاهة لدى الشخصية العامة واحترام الخير الجماعي، حيث يتجلى ذلك في تلك البادرة من دبلوماسي رفيع المستوى ذهبت لإجراء مقابلة معه في إطار البحوث التي قمت بها لنيل الدكتوراه، وقد عرض عليّ، أنا الطالبة الشابة، الجلوس مكانه في مكتبه أثناء المقابلة قائلاً إنه تعلم هذه اللياقات من والدي. ويعني إحياء رسالته أخيرًا احترام "الصغار" بقدر "الكبار"، الأمر الذي جعله يحظى بمحبة الموظفين في البيروقراطية السورية الواسعة واحترامهم، تمامًا كما في أوساط تجار السوق القديم حيث كان يحب أن يصطحب بناته. وقد سار عدد من هؤلاء التجار في موكب الجنازة أثناء المأتم في دمشق.

[2]80v08/d32-https://history.state.gov/historicaldocuments/frus1977

[3]Press Release, Department Statement by Adib Daoudy Prior to Departure from Tehran, United Nations of Public Information, 16 June 1980

[4]Sadr, 28 -General Kurt Waldheim to His Excellency President Abol Hassan Bani-Letter by UN Secretary .June 1980

أحيي ذكرى والدي (رحمه الله) الذي بقي، رغم مسؤولياته المرهقة ومرضه المؤلم، زوجًا محبًا وأبًا وجدًا عطوفًا ومبتسمًا وحاضرًا دائمًا وفاضلًا وشجاعًا. ربطت حياته المكرسة لفلسطين والقضية العربية ووفاته في بيروت ورحلته الأخيرة إلى مدفن باب صغير في دمشق القديمة مصيره، في الموت كما في الحياة، بمصير العالم العربي.

.

بقلم الدكتورة مروى الداوودي

Marwa Daoudy Ph.D.
Associate Professor/ Seif Ghobash Chair in Arab Studies
School of Foreign Service (SFS)/Center for Contemporary Studies (CCAS)
Georgetown University - Washington, DC

.